**زمن خلع الأبواب المقفلة**

17-08-2021 | 00:44 **المصدر**: النهار

[**داود الصايغ**](https://www.annahar.com/arabic/authors/%D8%AF%D8%A7%D9%88%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%A7%D9%8A%D8%BA)

كانت السنة بدهر. الرابع من آب لم يُحفر في الصخور لأنّه يوم ذلّ، قبل أن يكون يوم موتٍ ودمار. يوم ذلّ للبنان وعارٌ أمام العالم كلّه الذي أشار بأصابعه دون استـثـناء إلى مسؤولية المسؤولين، والذي كان قد دعا، ابتداءً من نيسان ٢٠١٨ في المؤتمر الدولي بباريس إلى وجوب [#الإصلاح](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d8%a5%d8%b5%d9%84%d8%a7%d8%ad) كشرطٍ أساسي للمساعدة ثم قامت الثورة بعد سنة من ذلك. ثم وقعت الكارثة بعد سنة أيضاً.

على أنه في يوم الأربعاء ذاك، يوم الذكرى الأولى، أطلّ وجه لبنان كما هو الآن: مزيجٌ من مآسٍ وإشراقات. في المرفأ دموعٌ وتمرّدٌ وغضب، وفي باريس تضامنٌ والتزامات. كأنّ المشرفين على العلاج ينحنون بصدقٍ على ملامح ذلك الوجه الذي لم تنل أيّ فاجعة من نبل ملامحه التي بدأ يطلّ بها على العالم.

حدث ذلك من المرفأ، مطرح المواعيد مع الدنيا منذ إنشائه عام ١٨٨٢، من حيث سافر اللبنانيون إلى آخر الأرض، وحفروا فيها أضرحتهم إلى جانب ما شيّدوا وعمروا، ولم يكن في ذاكرة الأوائل منهم سوى تلك الصورة الوحيدة لدى المغادرة الأليمة، وهي صورة المرفأ، تغيب مع سفر الموج حتى تختفي ويبدأ العالم الآخر.

يوم الأربعاء ذاك، إلى جانب أنهار الدموع التي لا زالت تسيل حرقةً وغضباً تلاقى زعماء العالم في باريس، من غربه وشرقه. وقالوا في لبنان ومستقبله ما هو منتظرٌ، ملتقين بذلك مع دعوة البابا فرنسيس في اليوم ذاته وفي المطالبات الصارخة التي عبّر عنها البطريرك بشارة الراعي في خطبته الصلبة، ثمّ في كلامه الشديد الوضوح في عظته بعد ذلك يوم الأحد في الثامن من آب الجاري عبر مطالبته المشروعة بسيادة شرعية الدولة وباحترام نصوص الدستور والقرارات الدولية، والتي أقل ما يقال عنها أنها مطالبة طبيعية يجب أن تنغرس في عقول جميع المخلصين الحريصين على أمن وسلامة لبنان وسيادته. فتعرّض لتهجمات كانت في الحقيقة مواقف المخذولين إزاء الرفض الصارم داخلياً وخارجياً لتعريض لبنان للأخطار خدمة لمشروعٍ غريبٍ كلياً عن مصالح لبنان.

وتوضّحت الصورة تلك أمام العالم حين جاءت الاشتباكات بين حزب الله وإسرائيل بعد يومين من الذكرى لتكشف أمام من كان متعذراً عليه أن يرى حقيقة مشكلة لبنان وأزمته. فلبنان هو بلدٌ مرتهن وليس بلداً سيداً بكل أسف. ارتُهن في بعض الزمان، من بعد معاناته الطويلة وعلى مدى خمسة عقود جرّاء سياسة الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، وإلى ضعف أو استسلام أو مصالح بعض القادة والمسؤولين اللبنانيين، فوقع لبنان في ما يُسمّى بجبهة الممانعة الإيرانية والتي صارت تعتبر لبنان مساحةً أولى لمدّ سياستها الخاصة والتوسعية في الشرق الأوسط. كأنّ الأمر مضى وانتهى. وهو لم ينتهِ إلا في عقول أصحاب تلك السياسة الطارئة التي ليست في النتيجة سوى حادثٍ في التاريخ.

كلّ ذلك في أسبوع. ورئيس الحكومة المكلّف يضرب المواعيد الجديدة مع رئيس الجمهورية بعد سنة كاملة من استقالة الحكومة إثر انفجار المرفأ، بتعذّرٍ واضحٍ لتـشكيل الحكومة.

سنةٌ كاملة ولبنان السياسي غارقٌ بين الاستشارات والتكليف والثلث المعطّل والوزارات السيادية، وعشرات اللقاءات بين المسؤولَين الدستوريَين وهما رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء، واجتهادات المجتهدين، رغم الوضوح الكامل لمعنى "الاتفاق" الذي نصّ عليه الدستور الذي يقول عن صلاحيات رئيس الجمهورية إنه "يُصدر بالاتفاق مع رئيس مجلس الوزراء مرسوم [#تشكيل الحكومة](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%aa%d8%b4%d9%83%d9%8a%d9%84+%d8%a7%d9%84%d8%ad%d9%83%d9%88%d9%85%d8%a9)..." فيا لهذا اللغز العميق الذي لم يفطن له المشترعون الدستوريون عام ١٩٨٩ وهو تفسير كلمة "بالاتفاق". إذ تبيّن أن هنالك صعوبة قسوة في بلد الوفاق الوطني، بعد الميثاق الوطني، بعد الوحدة الوطنية، بعد لبنان واحد لا لبنانان. لغزٌ لم يفطن له أولئك الذين وضعوا التعديلات الدستورية عام ١٩٨٩، ظناً منهم أن قواعد الوفاق التي قام ويقوم عليها لبنان منذ ما قبل نشوئه ككيان وكدولة مستقلة، تفترض حسن التلاقي وحسن القبول. تفترض القلوب المفتوحة بالدرجة الأولى، والكلام السامي.

ولذلك سمّوا الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣ بالدستور غير المكتوب، أي أنّ اولويات الوفاق في التفسير هي لخدمة مصلحته، تـتعدّى ليس فقط النصوص الجامدة كما في دساتير أخرى، بل التفسير الخاضع للمصالح الشخصية. أليس هذا أبرز ما أشار إليه البابا فرنسيس في كلمته في كاتدرائية القديس بطرس بتاريخ الأول من تموز الماضي حين دعا المسؤولين اللبنانيين إلى تغليب المصلحة العامة على المصالح الخاصة؟

ألم يكن ذلك هو ما دعا إليه الرئيس ايمانويل ماكرون مراراً في السنة المنصرمة ليخلص يوم ٤ آب الجاري بالقول إن المسؤولين في لبنان يراهنون على الإهتراء

"les dirigeants libanais semblent faire le pari du pourrissement  «.

مضيفاً إني آسف لذلك لأني أعتقد أن هذا خطأٌ تاريخيٌ وأخلاقي. مضيفاً إن الأزمة التي يعيشها لبنان ليست ضرباً من القدر ولا هي محتّمة. إنها نتيجة الإخفاقات الفردية والجماعية. إنها نتيجة ممارسةٍ انحرفت عن الخير العام والمصلحة العامة. وأضاف إن الطبقة السياسية اللبنانية كلّ الطبقة السياسية اللبنانية لم تتوقف عن تقديم مصالحها الخاصة والفئوية على مصالح الشعب اللبناني.

من على منابر العالم قيل هذا القول، لينضم إليه جو بايدن وأمين عام الأمم المتحدة والرئيس المصري عبد الفتاح السيسي وممثلي ألمانيا وإيطاليا والاتحاد الاوروبي والدول العربية. جميعهم وقفوا وتضامنوا. وهم يعرفون أن لبنان منتقص السيادة، وأن فيه دولة ضمن دولة، وأن ذلك السلاح يتعارض مع المصلحة الحيوية الأميركية كما قال جو بايدن.

لا خوف على العالم ألا يكون معنا. الخوف كان ولا يزال ألا نكون مع أنفسنا. وهذا هو الحاصل اليوم. ما من قوة عظمى سياسياً أو عسكرياً أو معنوياً إلا ووقفت معنا. ولكن السؤال الذي يفرض ذاته بكل تأكيد هو: لماذا لا تُؤلّف الحكومة في لبنان، ولماذا لا يتحقق الإصلاح المنشود الذي دعا ويدعونا إليه العالم كله بدون استـثـناء، والذي بات محتّماً من قبل كلّ الشرفاء في لبنان.

لقد صار واضحاً وضوح الشمس أن تلاقي هذه المصالح هو المعرقل. إذ هنالك ما يجمع بين مصالح الوراثة والانتخابات النيابية والثلث المعطّل وتوزيع الحقائب والحسابات الأكبر في صراعات المنطقة ومصالح جبهة الممانعة ولبنان في قبضتها. ألم يكن مُلفتاً ذلك الهجوم على القاضي العدلي والتشكيك المسبق بصدقيته واتهامه بالتسيّس، في الوقت الذي محضه جميع الذين تجمّعوا في الذكرى السنوية الأولى كامل ثـقـتهم. فإذا بنا نشهد تهديماً مسبقاً لصدقية القضاء اللبناني – كما حصل سابقاً مع صدقية القضاء الدولي – ولمصلحة من هو هذا التشكيك.

في أسبوع الذكرى الأولى للتفجير توضّحت الصورة ولكنها لن تتوضح على حساب الحقيقة. لبنان بلد الضرورة للعالم كلّه. إنّه لن يُقيّد لا بأحلاف خارجية ولا بمصالح خاصة تعرّض كيانه ومبررات وجوده للخطر. فلقد ظهرت مشاكل لبنان على ما هي عليه اليوم: كمثل الطبيب المعالج الذي يكشف على المريض. والطبيب وصف الداء يبقى العلاج الشافي وهو في الطريق. إنه في الطريق بين غضب الداخل وتحرّك الضمائر المشروع لدى الغالبية الساحقة من الشعب اللبناني الذين رفعوا الصوت ويرفعوه في وجه كلّ من يحاول تقويض لبنان وربطه بأحلافٍ هي نقيض وجوده وأصوات العالم الصديقة القريبة والبعيدة التي تنحني على وجه لبنان وتحرص على ألا يُصاب بأي تشويهٍ كان ليبقى ذلك النبل منارةً ليس بإمكان حدثٍ طارئ ومغرض وغريب أن يقف في وجهه، في وجه ذلك المسار المتألّق، تألّق الضياء في سماء الشرق.